« العصافير »

قصة بقلم رشاد أبو شاور

رذاذ خفيف يغسل السفوح والصخور . تتحرك الاغصان الزرقاء العارية مع هبات الرياح المتقطعة .. تشف غيوم اخر الليل ، وترحل مسرعة الى امكنة نائية لتعصر نفسها بوجع اسود . تتناهى الى مسامع « عبد الجواد » سقسقات عصافير فرحة افاقت لتوها من نوم عميق . ملابسه الصوفية العسكرية لا تقوى على منع جسده من الارتعاش. ثقل رصاصي يشد راسه واجفانه .. يتحرك ، يفرك يديه لكن الاصابع لا تطاوعه تماما . يجاهد بوعيه المشتت كي يدحر مد النعاس الملحاح . غبش الصباح المعتم يتبدد قليلا قليلا . وتلتمع مساحات شاسعة بين الغيوم الراحلة .

لذيذ ان يكون الانسان وحيدا في لحظة استمتاع تلوح كانها سرمدية ، تهبها الطبيعة والسلاح و ... اغنيات العصافير بلثغتها المحزنة . تحسس بيد مقرورة عروق الصخرة البرونزية التي يكمن خلفها فانسربت الى بدنه رغشة ثلجية قارصة . فوق راسه شجرة تساقطت اوراق اغصانها .. عريها موجع .. ادلهم في شرايينه شوق الى اماكن غير بعيدة ، ينسفح بينه وبينها شريان اخضر يتلوى راحلا الى البحر . البحر المالح الدافىء المياه ابدا . كانت عيناه تدمعان كلما انغمس في زرقته . يتطلع الى الشمال الغرابي ، البحر في الصباح الذابل كانما عين خضراء وسنى .. فوق راسه عصافير تحك اجسادها باجنحتها ، ترتفع مرفرفة ثم تحط على الاغصان من جديد . على المدى تستلقي بيارات البرتقال في « الاغوار » . ما زالت الاغصان تحمل بعض الحبات الصفراء المفسولة . آه يا حبات البرتقال كم انت لذيذة في « اريحا » و « هناك » .. في الاتجاه المقابل تصحو الحياة باسلوب اخر : تناهى الى مسامعه صوت انفجار ، ثم زخات رشاشات يعرفها جيدا . بلا وعي لثمت يده « مدفعه الرشاش » ووقف يجيل نظرات سريعة صوب القاعدة . خاطب نفسه بيقين : لا بد انهم قد نجحوا في الاقتحام . اعبروا ايها الرجال . اعبروا بالنار . بعد قليل تتمزق قماشة الليل ، ونرش الشمس اهدابها العسلية لتشتعل الحياة بالنور فتلتمع اسطحة المنازل على سفح جبل التجربة . ويحن لايام الدراسة في « هشام » . آه كم تخرج منها رجال لهم فرادة خاصة . بعضهم انصلب على ارضه ، وسقاها من قلبه لترتوي . وبعضهم ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .. بدأت تصعد من وراء جبال « مؤاب ». تمزقت عباءة الليل وانهمر دفء ناعم . اتحدت انغام العصافير وتصاعد غناؤها ، كجوقة منتظمة الانشاد . والشمس لا زالت تصعد ، تصعد .

صخبت اصوات على المدى البعيد . هذا لحن الافتتاح . ردت عليه اصوات نشاز يعرفها جيدا . انها بنادقهم تعوي بلكنة مغيظة.. مر بجانب اذنه اليسرى « وشيش » . اخفض راسه . رصاص طائش، ارتطم بكتفه شيء . تلفت جانبه ، التوت ذراعه لتجوس القماش فوق الكتف . دم . لا يعقل .. ارتجفت امامه بقايا طائر دوري ، وبسرعة فهم ما حدث . اخرج منديله من جيبه لم بقايا العصفور بحرص ، حملت اصابعه بعض حبات التراب المدماة .. حين انتهت نوبة الحراسة تسلق المسارب الصاعدة بين الصخور . توهجت الحياة بنور الشمس . حلقت العصافير مبتعدة في الفضاء الرحب، رؤوسها تتجه الى الغرب . خاطب نفسه : غدا سأدخل مع المجموعة ،وسأدفنه هناك ، في الارض غربي النهر .

رشاد ابو شاور